2

رائحة البلد

خلال إقامتنا في غزة، كنا نذهب بانتظام إلى الشاطئ ونلبي دعوات مستمرة لتناول وجبات شهية. يااللفتة ويا للماندي، يااللقِدرة المطهية في وعاء فخاري داخل تربة بيارات البرتقال، يا لصواني النمورة والكنافة. يا لكل هذه الأطايب التي كانت تُحضّر خصيصًا لنا. وتكتمل سعادتنا ونحن نثير إعجاب من حولنا بلغتنا الفرنسية التي كنا نتحدث بها فيما بيننا!

كل شيء يبدو كما لو أننا لن نرحل أبدًا، كما لو أن فلسطين لم تختفِ وستغدو بلدنا من جديد. لننس الجزائر ولننس المسافات وكل حياتنا الماضية!

عاد أبوانا معًا إلى أرضهما بقرب الأهل، وأحاطت بنا الخالات والعمات والأخوال والأعمام والأقرباء والقريبات. وحين كنا نفتح باب المنزل

للخروج، لم نكن نشعر بأننا نغادر بيتنا. الخارج أيضًا كان لنا، شوارع المدينة الرملية وطرقها المعبدة المليئة بالحفر. الأولاد الذين يلعبون والجيران الذين يطلّون من النوافذ والشرفات ويشيرون نحو هؤلاء "المغتربين". كل هذا كان بيتنا وكان يخصنا. كنا المغتربين الذين رجعوا وهم يتمنطقون بالفرنسية ويتحركون كالأجانب ويرتدون الملابس الأنيقة كأنهم فرنسيون عن حق وحقيق. إنما مع كل تصرفاتنا المغايرة ومظهرنا المختلف ظللنا "أولادهم". نعم، هكذا كانوا يدعوننا نحن القادمون من الجزائر.

في غزة، لحظنا وللمرة الأولى في حياتنا أن أبوينا يعيشان متناغمين مع المحيط، ومرتاحين على نحو لم نعتده. لقد توقفا عن سماع نشرات الأخبار، ويستمتعان بعد قيلولة طويلة بالقهوة والشاي والمعمول. هما أيضًا لديهما عائلة تسهر على راحتهما وتحضر لهما الطعام وتدللهما. عائلة مغروسة في هذه الأرض، متواصلة عبر التاريخ، عائلة نسرد تاريخها المشرق والمعتم وكل قصصها من الداخل ومن الخارج ومن كل الأنحاء.

كم هي طريفة ومؤثرة تلك الصورة التي أحتفظ بها عن أبي هذا الرجل القوي البنية! حين يلقي برأسه في حضن أمه وتمسّد شعره وهي تهمس "ابني، يا ابني الحبيب، ليش رحت بعيد يمّا". لم يسبق ووقع نظرنا على علاقة حميمية كهذه لأبي في جزائرنا البعيدة. هناك، حيث كنا نقيم وحدنا مع أبوينا كعائلة صغيرة خارج الزمان والمكان ولا تشبه في شيء العائلة التقليدية التي نراها هنا في غزة.

صحيح أننا تربينا أخيرًا في بلد حرّ وفي طور التقدم إلا أنه كان بلدهم، بلد الجزائريين. أما نحن فعشنا على الدوام نائين، جدّ بعيدين مما كنا نعتبره بلدنا، البلد النائي المعلّق الذي ينتظر مع أمتعتنا المركونة دائمًا على الرفوف وفوق الخزائن. في بيتنا كانت نشرات الأخبار تتردد طوال النهار وبعضًا من الليل. البي بي سي، صوت أميركا، صوت موسكو، صوت العرب، إذاعة الجمهورية الليبية. كان أبوانا يتنقلان من محطة لأخرى في عملية بحث دؤوبة عن الإذاعة الأقل تشويشًا، يعلو الصوت ويعلو ثم يغيب. كل الأصوات، كل الإذاعات كانت بنظرهما سيئة على الدوام. يحاولان ويحاولان ثم حين نصل لبعد منتصف الليل تصل إلى أسماعنا أنا وأخي تعليقات أبي المتذمرة وعبارات أمي التي غالبًا ما كانت تنتهي بقول مأثور:

– "آه، يا أولاد الكلب! كله زفت!"

لم تكن السياسة فقط محطّ اهتمام أمي وأبي، كانت ثمة قضايا أخرى تتخلل نقاشاتهما السياسية. وكان الحوار بينهما غالبًا ما ينعطف نحو الحياة العادية اليومية. فيتوقفان لبعض الوقت عند وجبة الغد والتسوق ثم يمران سريعًا على زواج الجارة ويتابعان لبعض الوقت قصص زوجين من أصدقائهما وبخلهما الذي يعوق استمتاعهما بالحياة. كانت همهماتهما وكلماتهما تصلنا وتثير فينا شعورًا بالاطمئنان كأنها تهدهدنا فما نلبث أن نستغرق في نوم عميق. كنت وأخي قريبين ومتفاهمين في ذلك الحين

لدرجة أنه لا يمكنني إلا الحديث بصيغة نحن حين أسرد ذكريات تلك المرحلة. لكن هذا لن يدوم!

ذلك الصيف كنا في غزة والأمور تسير على منوال مغاير، فلا أخبار ولا تعليقات. كانت الحياة مباشرة في عفويتها، نأكل جيدًا وننام كفايتنا ونذهب إلى البحر بسيارات أقربائنا الأكبر منا سنًا. كان هؤلاء فخورين بصحبتنا وبالأحرى بعرضنا على الآخرين، يزمّرون في الشوارع ويهتفون لرفاقهم بكل فخر:

– "هدول جايين من برا".

يصفّون السيارة على الرصيف، لا يهم أكانت في الصف الثاني أو الثالث، يكفي أن يطلقوا زمامير هم لتأتينا سندويتشات الشاورما أو بوظة الحليب بالفستق اللذيذة. قليلًا ما كنا ننتبه حينها لدوريات الجنود الإسرائيليين وهي تجول في شوارع المدينة بسيارات الجيب. لكنهم حين يجوبون الشوارع راجلين وهم يخبطون الأرض بأحذيتهم العسكرية كانوا يبدون، خلافًا لنا، متوترين. تفضحهم نظراتهم القلقة ورؤوسهم التي تلف في جميع الاتجاهات وكأنها مثبتة على زنبرك. كان يكفي أن نوقع شيئًا على الأرض أو نقوم بحركة مفاجئة لاثارتهم كي يقفزوا ويتخذوا وضعية التهيؤ. تلك كانت لعبة الصغار المفضلة يرمون غرضًا ما حين تمر دورية فينتفض العساكر في حركة استعداد لإطلاق الرصاص. حينها ينفجر الأولاد الاشقياء بالضحك وهم قد أمسكوا باليد برهان مقدرتهم

على تخويف الجنود، ويبدأون بالركض بعيدًا حتى لا يمسكوا بهم. وإن حصل ووقع طفل في قبضتهم فسيلقى عندئذ نصيبه من صفعات على الوجه وركلات على المؤخرة بالأحذية الثقيلة. ذلك كان يحصل في البداية، إنما فيما بعد لم يعد الجنود يتوانون عن ملاحقة الصغار بطلقات الرصاص الحي. رصاصٌ كان يخترق أجسادهم الصغيرة أو رؤوسهم ويقذف بهم أرضًا وقد فارقوا الحياة.

كان مشهد الجنود الإسرائيليين في مستهل إقامتنا يثير فيّ مشاعر متباينة، وحين كانوا يعبرون بجانبي يخفق قلبي بعنف ويضطرب كياني وأكلم نفسي "هدول هني اليهود". أردد هذه الكلمة مرات عدة في داخلي وألفظها أحيانًا لأجرب أثرها عليّ. كنت أكرر أيضًا عبارة "هدول جنود احتلال... احتلال". لا أعرف إن كنت أدرك جيدًا ما تعنيه هذه الكلمة بيد أنها كانت توجعني في العمق. كانت توحي لي أننا كنا أدنى منهم شأنًا، وبأنهم يتفوقون علينا ويحكموننا. كان هؤلاء الجنود يحتلون أرضي ويسرقون هوائي ويرعبون الجميع بزيّهم العسكري وأسلحتهم. كنت متأكدة بأن قلوب الناس تتسارع نبضاتها عند ظهورهم، وحين يتظاهرون بعدم رؤيتهم كانوا في الحقيقة يرونهم ويحسون بوجودهم.

كنت أتساءل عن سبب وجود هؤلاء المحتلين والمتسلطين في قلب المدينة، مدينتي. وإن كان لديهم فيها خالات وعمات وجدات وأقرباء وبيوت. وإن كانوا ينتشون مثلي برائحة الخبز الساخن المعجون والمخبوز

بيد الأمهات والجدات، الخارج لتوه من أفرانهن وأحضانهن. أتنتظرهم يا ترى رائحة القهوة بعد عودتهم من الشاطئ، القهوة الشهية التي نحضّرها بحب ونتذوقها بطرف اللسان فيما هي تغلي ويتصاعد بخارها وتهبّ رائحتها؟ لا، لا... بالتأكيد لا يعرفون كل هذا وليس بوسع أمهاتهم وخالاتهم إلا العيش هناك في تل أبيب، في برودة تلك المدينة، في لا إنسانيتها وبيوتها التي في اللا مكان. كنت على يقين بأن قهوتهم تحضر بلا نار في جهاز "سب" المودرن الذي اندفعت أمهاتهم لاقتنائه ليدخلن العصر الحديث. جهاز يصنع قهوة دافئة بلا طعم، تعدّها في شقة بلا روح أمّ بلا عمر لابن خائف مع خوذته ورشاشه وأحلامه البعيدة، أحلامه المجهضة.

يا ربي، يا ربي! لأتوقف عن هذا الهذيان الذي يجتاحني كنهر جارف وسيلقيني في هاوية لا أعرف كنهها. لأعد إلى هذا الجندي التائه تمامًا هنا، وأمه التي قد تكون في الخامسة والأربعين، ربما هي لطيفة إنما بالتأكيد مرعوبة تحت ثقل ديانتها وتاريخها وتنقلات شعبها. مرعوبة لدرجة تجعلها لا تركّز إلا على العرب المحيطين بها، فتزداد كراهيتها وتتصاعد فتشعر حينها بالاطمئنان، كأن الكراهية جدار يحميها. أما جهاز "سب"، أقسم بأني لا أشعر نحوه بشعور خاص لكنني لا أحبّ قهوته، ولا يؤثر امتلاك صديقاتي له من حبي لهن حتى لو قدّمنَ لي قهوة مصنوعة فيه فأنا أشربها دائمًا بهدوء، بلا مشاكل ولا تعليقات!

شخصيًا لست ضد هذا الجندي وأمه ولا جهاز "سب" ولا شقتهما في

تل أبيب ولا حتى بيته في بير السبع إن وجد. رغم ما يكلفني قول ذلك من جهد، فأنا غالبًا ما أشعر بالتضامن مع بني جنسي، أقصد الجنس البشري بلا أي تمييز للون أو لعرق أو لنوع أو لدين. أشعر في أعماقي بأن البشر متساوون لا يختلفون عن بعضهم، ومستعدة أنا البلهاء التي كانت تصدق إعلان حقوق الإنسان أن أقسم بحياتي وبروحي. إنما المشكلة القائمة مع الجندي وأمه وجهاز قهوته وكل هؤلاء الناس، هو سلبهم لحق أساسي مادي ومعنوي من حقوقي. لقد سلبوا بيت أمي مع كل محتوياته وتملكوه متجاهلين كل ما يمثله وما يرمز له في حياتنا. لم يكترثوا لحكايات من عاش فيه، أغراضهم وحاجياتهم وأثاثهم. كهذا الشرشف المطرز الذي ذكرني أخي بقصته فيما بعد، والذي كان موضوعًا تحت طبق أمي الذي حطمته شقيقة اليهودي. حسنًا، هذا الشرشف لم ينجُ هو الآخر من نظرات أمي المحمومة ولسبب لا يمكن تجاهله بالتأكيد، فقد طرزته وبذلت فيه كل جهدها، ولكم افتخرت هي الفتاة الصغيرة آنذاك بانجازه. أمي التي توجهت نحو أخت اليهودي بعيون دامعة ونظرة ضبابية وأخذت تحرك يديها المرتجفتين كما لو كانت تطرز لإفهام هذه الواقفة بمواجهتها أن هذا الشرشف الصغير هو من شغلها وجهدها هي حين كانت صغيرة. كانت تمسك به وهي تنظر نحو أخت اليهودي وطيف ابتسامة خاطفة متواطئة يعبر وجهها. كأنها في لحظة أمل عارمة ظنت بأن قصة الشرشف هذه ستحلّ كل شيء. فها هي امرأة تتحدث مع امرأة أخرى من جيلها عن التطريز، أليس هذا كافيًا لتتفاهما فيما بينهما؟

لكن اليهودي وأخته أخذا كل شيء ورغبا بالاحتفاظ بكل شيء بدءًا من طبق الكريستال إلى الشرشف المفرود تحته على الطاولة المرتكزة فوق أرض الصالة وصولًا إلى أرض بيت بير السبع.

بير السبع المدينة الصغيرة عند مدخل النقب، واحدة بين أخريات. كلها فيها بيوت، كلها بقصص شراشف، كراسي، أطباق، صبيان وبنات وأهالي وناس. لكن، كل شيء ضاع، كل شيء تحطم.

نحن الذين أَضَعْنا كلَّ شيءٍ وضِعْنا.